فاتحة السنة الثالثة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا أمة التوحيد ، وجعل ديننا دين التوحيد ، وسياستنا سياسة التوحيد ، وأعزّ من استقاموا منا على التوحيد ، وأذلّ من انحرف عن محجة التوحيد ، ليعيدنا كما بدأنا الى التوحيد ، انه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعّال لما يريد *

والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسله ، وصفوته من خلقه ، الذي بشّر بتوحيد الالوهية ، ليحرر الخلق من رق العبودية ، للعوالم السماوية أو الارضية ، وبتوحيد الربوبية ، ليعتقهم من رق التقاليد الدينية ، التي ألحقها رؤساء الاديان بالشرائع الالهية ، وبتوحيد السياسة ليكون الشعوب والقبائل أمة واحدة ، تضمها شريعة عادلة واحدة ، وتتعارف بلغة واحدة ، ليطلقهم من قيود الحكومة الشخصية الجائرة ، ويفكهم من أغلال العصبية الجنسية الخاسرة فاهتدى بكتابه العقلاء المستقلون ، وضل به السفهاء المقلدون ، فمنّ باتباعه المؤمنون ، وذلّ باعراضهم المعرضون ، وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد *

وبعد فقد تم للمنار اثنى عشر عاما ، كان له منها اثني عشر سفرا كبيرا فهي في هذه الامة كنقباء بني اسرائيل ، تجوب الاقطار داعية الى ذلك التوحيد ، مذكرة آخرها بما صلح به أولها ، وانها كالمطر ربما كان الخير الكثير في آخرها ، وقد وعدها الله تعالى بالاستخلاف في الارض ، واظهار دينها على الدين كله ، فلا يغدر في الاسلام اليائسون ، ومن يقنط من رحمة ربه الا القوم الضالون * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد *

بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا ،[١] ومن تمام التشبيه أن يكون على غربته شديد القوى ، فيوحد بهداية القرآن المتعددين ، ويجمع بارشاده المتفرقين ، فيعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم باتباع السنة ، ويعيد اليهم ما فقدوا من استقلال العقل والارادة ، فيخرجون من جحر الابتداع والتقليد ، ويظهرون في حلتي المجد الطارف والتليد ، أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد *

صادفت الدعوة مقاومة من قوم وارتياحا من آخرين ، كما بينا ذلك في فواتح ما سبق من السنين ، ومن اكبر الآيات المبشرات ، بأننا في اقبال حياة لا في ادبار ممات ، أن الورقات الخضراء ، في شجرة الامة الجرداء ،[٢] تزداد خضرة في كثرة ، لا سقوطا ولا صفرة ، فيا لها من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، حفظت حياتها على طول العهد بانقطاع الماء ، فكانك بها وقد أصابها الوابل فآتت أكلها ضعفين ، واوتي أهلها أجرهم مرتين ، قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ، وهل نتربص

(١) اشارة الى حديث مسلم الذي يحتج به اليائسون وهو حجة عليهم (٢) اشارة الى قول الاستاذ الامام: الى ارى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراء فلا ادري أهي بقايا الحياة القديمة أم هي مبدأ حياة جديدة

بانفسنا الا ما وعدنا من سعادة الدارين ، قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد *

قد تمهد طريق الاصلاح ، ونادى مؤذنه حيّ على الفلاح ، فسمعه العربي والتركي ، والفارسي والهندي ، والتتري والصيني ، والملاوي والزنجي ، الحضري منهم والبدوي ، فأقبل كثير من المرضين ، وعرف كثير من المنكرين ، ونطق كثير من الساكتين ، ودعا كثير من المبطلين ، وأدعى كثير من الكاذبين ، فان كان قد آن لمن تمهد لهم الطريق ان يقولوا ، فقد آن للممهدين ان يسيروا ، ولمن قالوا من قبل ان يفعلوا ، وهدُوا إلى الطيب من القول وهدُوا إلى صراط الحميد *

هذا ما أعد الله له الأمة ، بعد ان طال عليها أمد الغمة ، رأى أهل البصيرة من عقلائها ما أصابها من الادواء ، وشعروا بشدة الحاجة الى الدواء كان مرضها واحدا ، فكان شعورهم كذلك واحدا ، ذلك بأن الاسلام قد جعلها أمة واحدة في صحتها ، وواحدة في مرضها ، لم يقو على توحيدها إياها اختلاف المذاهب واللغات ، ولا تباعد الجهات وتعدد الحكومات ، فكما كانت صحتها بالاهتداء بكتابه وسنته ، كان مرضها بالاعراض عن هدايته ، التي جمعت بين حقوق الروح وحقوق الجسد ، واستقلال العقل والارادة في العلم والعمل ، ورابطتي الاخوة والفضل والبر والعدل بين جميع الملل والنحل ، [1] وانما العلاج ان يرجعوا من دينهم الى خير ما فقدوا ، ويأخذوا لمصلحة دنياهم أحسن ما وجدوا ، وكذلك فعل المنعم عليهم ، الذين كانوهم

(١) كتبنا في المنار من قبل مقالة في جنسية الاسلام بينا فيها ان الاسلام جاء برابطتين اجتماعيتين احداهما دنيوية اجتماعية وهي تربط جميع من يعيشون في داره ويخضعون لسلطانه بشريعة العدل والمساواة والبر والاحسان مهما اختلفت أديانهم . والثانية روحانية تربط الآخذين بعقائده وآدابه بأخوة أخرى

التأسي والاهتداء بهم ، لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتولَّ فإن الله هو الغني الحميد *

لقد رحضت النوازل هذه الأمة رحضا ، ثم محضتها النوائب محضا ، وقد آن ان تخرج زبدها محضا ، فقد ظهرت نقطه من زمن بعيد ، وكثرت ذراته من عهد قريب ، ولم يبق الا أن ينجذب بعضها الى بعض ، وتتكون في جانب من الشرق ، هنالك يظهر خير الاسلام ، ويعرف فضله في جميع الأنام ، وان ذلك لواقع ماله من دافع ، انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شهيد *

فالمنار يذكر مريدي الاصلاح في هذا العام ، بوجوب التعاون على الاستعداد من هذا الاستعداد العام ، فبادروا الى اغتنام فرص الزمان ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، وماذاك الا ان تجتمعوا على حقكم ، وتتعارفوا أنتم ومن يشعر شعوركم ويرى رأيكم ، وتوحدوا طريق التربية والتعليم ، في الجمع بين علوم الدنيا والدين ، قبل ان يغلبكم على الامة أهل التربية المادية المضطربة ، والتعاليم التقليدية المذبذبة ، الذين تحولوا عن التقاليد الاسلامية ، الى التقاليد الافرنجية الصورية ، فهم يدحرجون الامة من تقليد الى تقليد ، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد *

لقد وقف سلفنا العقار والاراضي الواسعة ، وبذلوا الدنور والاموال الكثيرة ، على معاهد العلم كالمدارس والمكاتب ، ومعاهد التربية والارشاد كالرباطات والتكايا والزوايا ، وها نحن أولاء نرى الخلف ، قد انشأوا يحيون

سنة السلف ، فهم يبذلون الاموال الكثيرة للاعمال العلمية والخيرية ، والاحزاب والجمعيات السياسية ، أفحسبتم أن الامة تسخو في نهضتها على الحظوظ والمنافع العاجلة ، وتبخل على الاصلاح الاسلامي الجامع بين سعادة الدنيا والآخرة ؟ تلك اذاً كرّة خاسرة ، وانا لمردودون في الحافرة ، كلا اننا أمة قد كمنت فيها وما فارقتها الحياة ، وان الاسلام نائم في قلوب العامة فيحتاج الى الايقاظ ، وقد كثرت صيحات الموقظين ، الا أنهم لا يزالون متفرقين ومختلفين ، وقد أذّن اليوم بينهم مؤذن التوحيد ، وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائق وشهيد « لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُكَ اليوم حديد »

ان المجتمعين أجدر بالفلاح من المتفرقين ، وان المتفقين أحق بالنجاح من المختلفين ، وان المستقلين أولى بالثبات من المقلدين ، وان الثابتين أحوى في الجلاد من المتزلزلين ، على أننا لا نجالد أعداء الاصلاح بسيف ولا سنان ، وانما نجادلهم بالحجة والبرهان ، ونحاكمهم الى السنة والقرآن ، ونصبر على ما آذونا ، ونحسن اليهم وان أساؤا الينا ، ولكن لا نترك أمر الامة في التربية والتعليم ، يتنازعه التفرنج الحديث والجمود القديم ، فليهم دون ذلك ما يشاؤن ، وليعملوا على مكانتهم انا عاملون ، ولينتظروا انا منتظرون ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلاّمٍ للعبيد

يا أهل القرآن : ان القرآن كان حجة لكم ، فصار اليوم حجة عليكم ، أخبركم الله فيه أن الارض يرثها عباده الصالحون ، وان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وان حقا عليه نصر المؤمنين ، وانه وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الارض ، وقال « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ، وبيّن ذلك بقوله « ما على المحسنين من سبيل ، انما السبيل

على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض» ، فما بال الناس يرثون أرضكم، ويخلفونكم في ملككم ، وأنتم لا ترثون أرضاه بل لا تحفظون ارثاه، وما بالهم يسلكون كل سبيل الافتيات عليكم ، وما بالكم تخربون بيوتكم بأيديهم وأيديكم، كيف ذهبت عزتكم ،وكيف خضدت شوكتكم ،وكيف كنتم تأخذون فتحمدون ،فصرتم تعطون فتذمون ،هل رضيتم بأن تكونوا من الظالمين الباغين ،بعد ان كنتم خير العادلين المحسنين، أليس منكم رجل رشيد، أترضون ان تكونوا ممن نزل فيهم «بأسهم بينهم شديد» ألا تتدبرون قوله تعالى «وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد»

يا أهل القرآن : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، «وجعلكم الله أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس من أفرط منهم ومن فرّط ، ولكنكم غيرتم ما بأنفسكم، فغير الله ما بكم، فتنبه الوثنيون وأنتم غافلون ، واجتمع اليهود وأنتم متفرقون ، وسبق النصارى وأنتم متخلفون، وها أنتم أولاء تستيقظون ،فان سرتم الهوينا فالناس مجدون، وان كنتم لا تزالون تختلفون فهم يتفقون، فلا يفرقن بينكم جنس ولا نسب، ولا لغة ولا مذهب ، ولا سياسة ولا مشرب ،فان تفرقتم فهي القاضية، فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية، اعتبروا بتاريخ من قبلكم ،وبأحوال الامم في عصركم ، وتدبروا القرآن، وما بيّنه من سنن الله في نوع الانسان، فقد آن الاوان، واستدار الزمان، واتصل القريب بالبعيد، وامتاز القوي من الرشيد، «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»

منشيء المنار ومحرره

محمد رشيد رضا الحسيني